الحالة الاقتصادية والاجتماعية فى السودان

للدكتور يوسف نحاس بك

لم أبغ من رحلتى الى السودان فى هذا العام التى استغرقت زهاء شهرين سوى الاستجمام والافادة من جوه شتاء كعادتى فى السنوات السابقة. إلا أن مصاحبة صديق خليل مطران بك لى فى هـذه الرحلة قد جعلت من المستحيل أن أتجنب مقابلة اخواننا السودانيين الكرام الذين احتفلوا بالشاعر العربى الكبير احتفالا منقطع النظير كنت من شهوده، فاتيح لى التحدث الى فريق عظيم من الصحافيين ورؤساء الأندية ورجال الأعمال وأولى الرأى فتبينت فيما تبينت:

أولا — أن السودانيين يحبـون مصر حب الأشقاء الأوفياء، و يودون من قلوبهم أن تزداد وشائج الود بيننا و بينهم توثقا، وقد أبدوا فى أكثر من مناسبة أسفهم من أن المصريين لا يزورون القطر الشقيق الا نادرا ولا يسعون الى تقوية العلاقات الثقافية والروابط الاقتصادية بين القطرين، وقد تجلى هـذا الأسف فى متعدد الخطب والقصائد التى سمعناها فى كل حفلة من الحفـلات التى أقامها نادى خريجى الخرطوم ونادى خريجى أم درمان والنادى السورى ونادى النهضة النوبية ونادى عمال الخرطوم ونادى عمال أم درمان وملجأ الفرش والنادى المصرى ومدرسة فاروق الأول ومدرسة الأقباط ونادى حلفا بمديريتها الخ. وكانها ملأى بالعواطف الكريمة والاشادة بمصر والتعلق بملكها المعظم.

ثانيا — أن المستوى الثقافى قد ارتقى رقيا يدعو الى الاعجاب، كما أن تعطش السودانيين الى التعلم بلغ مدى يبشر بكل خير، فالمدارس مكتظة بالطلبـة الى أقصى ما تسمح له. وقد علمت من حضرة المربى الفضال الأستاذ محمد عبد الهادى بك مدير مدرسـة فاروق الأول الثانوية الذى سافر الى الملاكال ثم عاد الى الخـرطوم أثناء اقامتنا هناك لفتتح مدرسة ابتدائية معدة لقبول نحو ٦٠ تلميذا أنه تقدم اليـه أكثر من ضعف هذا الرقم من الأولاد الراغبين فى الالتحاق بها.

أما العمارة الفخمة التى تشاد الآن فى الخرطوم لتكبير مدرسة فاروق الثانوية فقد يتهيأ إعدادها فى مدى شهور قلائل، وأن الذى شاهدناه من بواكير التعليم فى العام الدراسى الأول بها قد شرح صدورنا، ولا نبالغ إذا قلنا إن التلاميـذ أبدوا من علامات النجاح ما يعادل إن لم يفق النجاح فى مدارسنا الثانوية بمصر فاستشرفنا وتوسمنا الخير للثقافة المصرية فى السودان يوم يتم هذا المبنى الجديد و يؤمه العدد الكبير الذى يتسع له من التلاميذ. كذلك وجدنا مدرسة الأقباط سائرة على سنن التقدم والرقى سواء فى تعليم البنين والبنات فان هـذا المعهد جدير فى نظرنا بأن ينال من حكومتنا تشجيعا أكبر و إعانة أسخى تسد العجز فى موارده ليستمر فى تأدية

رسالته العظيمة على الوجه الأكمل، فانى ذلك يحسن توجيه نظر وزارة معارفنا ومعالى وزيرها المفضال .

ثالثا — إن النهضة الفكرية فى السودان قد تناولت أيضا بشكل بارز الطموح الى ترقية البلاد اقتصاديا ، فاخواننا السودانيون وفى مقدمتهم خريجوا المدارس تواقون الى تعرف الوسائل المؤدية إلى توطين الصناعات فى ربوعهم وتأسيس المنشآت التى ترقى بها التجارة والصناعة . فما أن علموا بتقدمى حتى شرفونى بزيارتهم المتعددة طالبين إلىّ أن أرشدهم إلى مايحسن عمله فى هذا الصدد ومن الأسئلة الكثيرة التى وُجهت إلىّ :

(أ) ما رأيكم فى مشروع الجزيرة وما هى الطريقة المثلى لانتفاع السودانيين به عند ماتستولى حكومة السودان على أراضى الجزيرة فى عام ١٩٥٠

(ب) كيف تكون الدعوة المجدية لتكوين شركات مساهمة فى السودان .

(ج) هل آن الوقت لتأسيس بنك السودان .

(د) ما رأيكم فى إنشاء الصناعات واقامة المعارض للمنتجات المحلية الخ .

وقد ألح الصحافيون أيضا فى استطلاع رأيى فى توسيع نطاق الزراعة وفيما إذا كانت مصلحة السودان تتعارض مع مصلحة مصر الزراعية وماهو مقدار الاستعداد فى مصر لاستثمار الأراضى السودانية الآن وما الذى حال دون استجابة المصريين لدعوة البعثة المصرية فى الماضى لهذه الغاية ، وهل تعديل اتفاقية مياه النيل بما يوفر للسودان قسطا أكبر من تلك المياه يتعارض مع مصلحة مصر — وماهى أنجع الوسائل لتنمية العلاقات الاقتصادية بين القطرين الشقيقين وكيف تكون مستقبل السودان الاقتصادى الخ ؟ ؟

(رابعا) أن ذوى الرأى فى السودان يودون من صميم قلوبهم أن تمد لهم مصر يدها للنهوض بالصناعة والزراعة وذلك بأن يشتركوا معهم بالفكر والمال لتأسيس شركات تستغل المرافق الزراعية والصناعية .

(خامسا) أبدى اخواننا أسفهم الشديد لعدم ممارسة الخبير الاقتصادى مهمته منذ اتفق على وجوده فى السودان . فهو ما أن يعين ويذهب الى الخرطوم حتى يعود الى مصر ، ثم يعين سواه فما يلبث أن يحذو حذو الأول ، والمنصب الآن شاغر لم يشغله الخبير الذى عين منذ أمد طويل ، ولم يفكر فى تسلم المهام الموكولة اليه ، فهذه حالة لايسع كل مصرى غيور على الاحتفاظ بعلاقاتنا بالسودان إلا أن يشترك مع السودانيين فى التبرم بها والإهابة بالحكومة المصرية أن تعالجها بعلاج فعال يحتمه ما يطمح اليه كل مصرى من جعل القطرين الشقيقين قطرا اقتصاديا واحدا . فاذا ماندب للمنصب رجل قدير مشبعة نفسه بهذه الأمنية مستعد

للتضحية بشيء من رفاهيته بأن يقيم فى السودان اقامة مستمرة (وليست وسائل الرفاهية غير متوافرة فى الخرطوم اللهم إلا من جهة الحالة الجوية التى يتحملها نفس الانكليزى بلا مضض) اذا ندب ذلك الرجل فاننا نتوقع كل الخير والفائدة للبلدين من عمله .

وفى صدد انتخاب الموظفين للسودان أقول إن بعضا من المصريين والسودانيين المحبين لمصر حبا شديدا أبدوا لى فى عامنا هذا وفى العام الماضى أيضا أمنية ألحوا على بنقلها الى ذوى الشأن، وهى أن يدقق كل التدقيق فى اختيار الأشخاص الذين يرسلون ليشغلوا وظائف إدارية أو عسكرية فى القطر الشقيق بحيث يكونوا قدوة حسنة واعلانا طيبا لمصر .

أقول ذلك مع اعترافى بأن جل الموظفين المصريين فى السودان يتحلون بأخلاق حميدة ونشاط ملحوظ فضلا عما يبدونه من وطنية صادقة وتلهف لكسب مودة إخوانهم السودانيين وعما يتبرعون به لهم من جهد صادق لإزالة الخلافات البسيطة التى لا مندوحة عن وقوعها أحيانا، ويجب أن أخص بالذكر من حضراتهم فضيلة الشيخ حسن مأمون قاضى قضاة السودان وحضرة صاحب العزة رئيس أركان حرب القوات المصرية بالسودان الأميرالاى شعبان بك يوسف وحضرة صاحب العزة صبرى الكردى بك المفتش العام لرى السودان وحضرة البكباشى على نجيب الياور المصرى لدى الحاكم العام بالخرطوم وحضرة الأستاذ محمد عبد الهادى مدير مدرسة فاروق الأول الثانوية، فهم وغيرهم ممن لم أورد أسماءهم هنا يؤدون رسالة مصر فى السودان على أجمل ما يكون الأداء .

سادسا — إن حالة الزراع فى السودان بعيدة الشبه عنها فى مصر، فإنهم لم ينالوا من ارتفاع أسعار المحصولات الزراعية شيئا يذكر بسبب الأسعار الرسمية التى حددت لها فى حين أنه قد أصابهم شيء من زيادة تكاليف الإنتاج وإن كانت تلك الزيادة لا تقارن بما أصاب تكاليفنا الزراعية، وإنما هدفت الحكومة فى جعل الأسعار منخفضة إلى أن لا تغمر السودان موجة غلاء المعيشة التى منيت بها مصر، وقد نجحوا هناك فى مدافعة الغلاء كما نجحوا نجاحا يضرب به المثل فى تنظيم التموين تنظيما محكما يحا يتساوى فيه الرفيع والوضيع، كما أن الحكومة هناك قضت منذ البدء على السوق السوداء وحددت أرباح التجار فى مختلف السلع تحديدا معقولا لا يفكر أحد منهم سودانى أو غير سودانى فى تجاوز نطاقه خشية أن يؤخذ بالعقاب الصارم السريع الذى ينزل بمن ارتكب أصغر مخالفة ، فالحالة ثمة من حيث التموين والتجارة جديرة بالاعجاب وإن تكن حالة الزراع غير مشجعة لهم على التوسع والاتقان ولو أعينوا إعانة ميسورة ونالوا قسطا أكبر من الربح لكانت فرصة مواتية لحفزهم فان قنطار القطن السكلاريدس يشترى منهم أجود نوع منه بخمسة جنيهات للقنطار وعلى هذا قس ثمن سائر المحصولات والمواشى .

الاقتراحات

بعد هـذا البيان أعرض للذين يهتمون بأمر العلاقات المصرية السودانية الاقتراحات التالية التي استمدها مما تبينته من رغبات وأماني ومشاهدات أوجزها فيما يلي :

أولا — على رجالنا الرسميين أن يكثروا من زيارة السودان، وعلى رجال المال والأعمال والهيئات الزراعية والصناعية والتجارية أن تفعل ذلك أيضا حتى يكون في هذا التزاور مدعاة لحسن التفاهم وتبادل المنافع وتقوية الروابط ، وللحكومة رسالة ثقافيـة هي ماضية في تأديتها وإنما نرجو أن تسخو بالإعانات لتشجيعها ، ونرجو كذلك أن تساعد على تشييد المنشئات الاجتماعية وقد علمت أنها قد اعتزمت بناء مستشفى مصري بالخرطوم وقدرت تكاليفه بنحو ثلاثين ألف جنيه ، إلا أن هذا المشروع لم ينفذ للآن لأسباب أعتقد أنه في استطاعة معالي وزير الصحة الهمام إزالتها وهذا المستشفى ضروري للمصريين المقيمين في السودان وللسودانيين أيضا وهو من أجل الأعمال التي تخلد ذكرى مصر في القطر الشقيق .

ثانيا — على مصر أن تشجع النهضة الصناعية التي تجلت بوادرها لنا فان من الصناعات ما له نجاح محقق إذا ما اشترك المصريون في دراسة ممكناتها وتفاصيلها وساهموا بالمال الكثير المتوفر لديهم لتشييدها . وفي السودان الآن مصانع الزجاج ودبغ الجلود ونسج الدمور وعمل الأزرار وهذه الصناعات وغيرها قابلة للتوسع والنماء وخصوصا صناعة الدمور الذي يكتسي به سواد الأهلين منذ كانت السودان تعول على اليابان للحصول عليه وتدفع لها قبل الحرب نصف مليون جنيه سنويا ثمنا له . فإذا ما تزعم بنك مصر بمعاضدة البعثة السودانيـة ووزارة التجارة حركة الدعوة لإنشاء صناعات في السودان كان في ذلك الخير كل الخير من جميع النواحي للقطرين معا.

ثالثا — الزراعة في السودان مفتقرة الى المال والأيدي العاملة للاستقاع بالأراضي الجيدة القريبة التي لاتزال بائرة والتي يحسن أن نوجه نظرنا إليها لزرعها واجتناء ثمراتها مادامت الأحوال قد تبدلت منذ عام ١٩٣٥ تبدلا يقتضينا أن نحث مواطنينا على ما كنا لم نرتئيه حين وضعت مع زميلي في النقابة الزراعيـة تقريرنا في ٢٠ مايو سنة ١٩٣٥ على أننا قد اختتمنا التقرير بالعبارات التالية :

" أما مسألة تملك المصريين بعـد أن تكون قد أزيلت جميع العوائق التي أشرنا إليهـا في أثناء هذا التقرير فهي مسألة نسبية وتقديرية يرجع فيها إلى رأي كل راغب في التملك وقد يكون اقتناء أرض متوسطة الجودة أمرا مربحا إذا أمكن الحصول عليها بثمن ملائم وأمكن استغلالها باطمئنان، واستطاع صاحبها أن يكثر لها الأيدي العاملة وهي من كثريات المصاعب في السودان كما أشرنا آنفا . وجملة القول أننا ننصح للذين يخطر لهم تملك خصوصا إذا أخرجت إلى حيز الوجود فكرة إنشاء شركة مصرية سودانيـة لهذا الغرض أن يكون ماتبدأ به دراسة جميع العوامل الاقتصادية والزراعية في المنطقة المراد شراؤها ... فاذا ملكت

الشركة بعد المباحث الوافية فهي ستفيد المصريين أفرادا . بربحها المكتسب من ممارسة العمل وسيتسنى لها أن ترشدهم إرشادا حكيما مأمون العاقبة بقدر ميسور" .

والآن وقد تلاشت ان لم تكن قد زالت بناتا العوائق التي بيناها في تقريرنا الآنف الذكر، فاني أرجو مخلصا أن تحقق في القريب الفكرة التي قامت لدى صديق المفضال حضرة صاحب السعادة فؤاد أباظه باشا و بعض الزملاء المحترمين بأن تؤسس شركة زراعية الى جانب الشركة التجارية التي أنشأناها ونالت قسطا مشجعا من النجاح . وما تزال أسعار الأراضي في السودان زهيدة جدا فهي تدعو الى اغتنام الفرصة وهناك المناطق الواقعة بحرى الخرطوم وهي أراض تصلح للاستغلال الزراعي المربح لخصبها وقربها من النيل .

ولي وطيد الأمل أن تنظر الحكومتان المصرية والسودانية إلى هذا المشروع بعين العطف والتشجيع، وأن تمده بما تيسر من المساعدات فيخف بذلك الضغط المتأتي من تكاثر السكان في مصر تكاثرا يوجس الباحثون منه خيفة وتزداد روابط القطرين ، ناهيك بما كشفت عنه ظروف الحرب الحاضرة من أن العالم أصبح في حاجة ماسة إلى أن تستغل الأراضي الصالحة في كل أنحاء الأقطار استغلالا يفي كل بلد شر المفاجآت التي فاجأتنا بها هذه الحرب من نقص في الانتاج الزراعي .

وربما كان من المفيد أيضا أن يتجه التفكير إلى إنشاء الغابات في السودان انتفاعا بما تجود به من الأخشاب العظيمة القيمة أظهرت الحرب أيضا مبلغ الحاجة اليها فضلا عما تحدثه هذه الغابات من تلطيف الجو ومنع الرياح الموسمية الشديدة .

رابعا — مسألة مياه النيل — كل مسعى للتوسع في الزراعة السودانية يبدو عظيما إن لم تسارع مصر إلى الانتفاع بمياه النيل التي تذهب ضياعا في البحر الأبيض المتوسط فتحتجزها لتستفيد منها القطران الشقيقان، ولقد طال المطال على الدراسات والبحوث، والشأن أخطر وأهم من أن تستمر ضمن خطة التلكؤ والتريث ، وهناك من المشروعات المدروسة دراسة وافية ما يسمح بأن نبت فيها بلا إمهال ولا تواكل ، و إلى ذلك نرجو أن تتوجه النيات الصادقة والعزائم الماضية ، نسأل الله التوفيق في خدمة السودان العزيز الذي هو قطعة من جسم مصر .

النيل مرآة النجوم وكهف عالمها الرحيب
بل قصة الشمس التي تتلو بها شجن المغيب
وقصيدة الشرق المعطر سرة المطهرة الجيوب